إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
لقاء على الهواء في قناة لوغوس
سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٤م
الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

الكنيسة بيتُ الله ومحلُ سُكناه

آداب الحضور في بيت الرَّب

إن أردتَ أن تعرف تقوى شعب، فتعرفها من تصرفاته في الكنيسة في غير أوقات الصَّلاة. لأنَّ الكنيسة هي بيتُ الله ومحلُ سكناه، سواءٌ كانت هناك صلوات مرفوعة أم لا. لأنَّ الكنيسة التي تمارس عبادتها الطَّقسيَّة بالرُّوح والحق، وتُكرِّم المسيح وحده صاحب البيت، وليس آخر سواه، وتقدِّم له الكرامة اللاَّئقة باسمه القدُّوس، تمتلئ أجواءها بجوقات من الملائكة والشُّهداء والقدِّيسين، حتى في غير أوقات الصَّلوات الطَّقسيَّة. فنعمةُ الله لا تفارق بيت الله.

سُكنى الله في بيته، أكسبته هيبة وجلالاً، وأضفت عليه قداسة ورهبة. فصارت أبوابُه وأعتابُه مقدَّسة، بل وحتى تُرابُه أيضاً، إلى حدِّ أنَّ تقبيل أرض الكنيسة وتعفير الوجه بتُرابها، يملأ النَّفْس فرحاً روحانيًّا مقدَّساً. فهي المكان المقدَّس الذي نقدم فيه العبادة اللاَّئقة بمن أحبَّنا وبذل نفسه من أجلنا. «ببيتك تليق القداسة ياربُّ إلى طول الأيام» (مزمور ٩٣:٥). فعلى قدر توقير وتكريم ربِّ البيت، كذلك يكون توقيرنا وتكريمنا لبيت الرَّب أيضاً.

ولقد اهتمَّت الدِّسقوليَّة (تعاليم الرُّسُل) بالحديث عن العبادة داخل الكنيسة وآداب الحضور فيها. ففي الباب الثَّامن تشدِّد على ضرورة التَّبكير في الذِّهاب لبيت الرَّب من أوَّل ساعة في النَّهار، لأنَّ الذين يبكِّرون إلى الرَّب، يجدونه.

وفي الطَّريق إلى الكنيسة، لا يتشاغل أحدٌ بالحديث مع آخرين، بل يتهيأ باطنياً ليتراءى أمام الرَّب في بيته، وذلك بتلاوة بعض المزامير مثل «فرحتُ بالقائلين لي إلى بيت الرَّب نذهب ...» (مزمور ١٢٢). و«مساكنك محبوبة ياربَّ إله القوَّات ...» (مزمور ٨٣). وأيضاً «السَّاكن في ستر العلي يستريح ...» (مزمور ٩٠).

وفي حال الدُّخول إلى الكنيسة، نُقبِّل أبوابها، ونردِّد قائلين: «أمَّا أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك، وأسجد أمام هيكل قُدسك بمخافتك» (مزمور ٥).

ثمَّ السُّجود أمام باب الهيكل الكبير قائلين: ”نسجد لك أيها المسيح إلهنا، مع أبيك الصَّالح، والرُّوح القُدُس، لأنك أتيت وخلَّصتنا“. فالسُّجود إلى الأرض، هو تعبير طقسي عن إيماننا بنزول المسيح إلهنا إلينا على الأرض، لذلك نقبِّل الأرض التي وطأها قدماه.

ثمَّ نقف ونُصلِّي الصَّلاة الرَّبانيَّة بفهم وتؤدَّة. ثمَّ تقبيل ستر الهيكل وأيقونات القدِّيسين وذخائرهم إن وُجدت. ثمَّ تقبيل يد الكاهن للبَرَكة. ثمَّ الوقوف في صمت كامل، وورع مطبق، في المكان المحدَّد لي في الكنيسة وليس في أيِّ مكان كيفما اتفق.

وقديماً، كان الإنسان يدخل إلى الكنيسة حافي القدمَين عاري الرأس. فيقول البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، في قانون له: ”إنه لا يجوز لأحد المؤمنين الدُّخول إلى الكنيسة إلاَّ وهو حافي القدمَين عاري الرأس“.

وهو ما يعطي للدَّاخلين شعوراً بالمهابة والمخافة لبيت الرَّب، لأنَّ أرض الكنيسة أرضٌ مقدَّسة. «اخلع نعل رجليك، لأنَّ الموضع التي أنت واقف عليه، أرض مقدَّسة» (خروج ٣:٥). ولكن بعد أن تعذَّر ذلك الأمر لكثرة أعداد

المصلِّين في مقابل قلَّة أعداد الكنائس، بطُلت هذه العادة. ولكن لا ينبغي أن نغفل، أنه لا فرق بين الكنيسة وهيكلها الذي لازلنا ندخله حتى اليَوم بعد خلع أحذيتنا من أرجلنا.

فالكنيسة بهيكلها وصحنها، كلُّها مكان مقدَّس، لأنه كما يُدشَّن الهيكل والمذبح بالميرون المقدَّس، فصحن الكنيسة أيضاً وجدرانُه، تُدشَّن بالميرون المقدَّس.

وتشهد الوثائق القديمة، أنَّ "الأبواب الملوكيَّة"، كانت تُطلق على أبواب الكنيسة نفسها، وليس على أبواب الهيكل. لأنَّ الكنيسة كلَّها، تُعتبر بمثابة السَّماء على الأرض[١].

ويقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧م):

[عندما أتى المسيح وتألم خارج أسوار المدينة، طهَّر الأرض بأسرها، جاعلاً كلَّ بقعة من بقاعها مذبحاً ... فهل تريدون أن تعرفوا كيف استحالت الأرض برُمَّتها معبداً؟][٢].

وتقول الدِّسقوليَّة في الباب العاشر: "... ليكن العلمانيُّون جلوساً ناحية بكلِّ ترتيب وهدوء، وكذلك النِّساء أيضاً يجلسن معتزلات ناحية وحدهن، بهدوء وسكوت ... وليفتقد الشمَّاس الشَّعب، لئلا ينعس أحد، أو ينام، أو يضحك، أو يعيِّر صاحبه(٣).

يجب عليكم أن تقفوا في الكنيسة بهدوء وعفاف ويقظة، لسماع كلام الله، بانتصاب عظيم. وليتفرَّغ بعض الشَّمامسة لخدمة قُربان الشُّكر ويخدموا الرَّب حينئذ بخوف ورعدة. والبعض الآخر يراعي الشَّعب، ويوصيهم بأن يكونوا في سكوت عظيم. والشمَّاس الذي يكون قائماً مع رئيس الكهنة للخدمة، فليقُل للشَّعب أن لا يدع أحدٌ بينه وبين أخيه وجَداً[٤] ولا دغَلاً[٥] ولا رياء ... أسرعوا ولا تتأخَّروا عن كنيسة الله أبداً".

ويقول القانون (٧:١٧) من قوانين هيبوليتس القبطيَّة (أواخر القرن الخامس الميلادي): "الذي يتكلَّم في الكنيسة فليُخرَج، ولا يتقرَّب تلك المرَّة من السَّرائر".

ويقول الأُسقُف إغناطيوس بريانتشانينوف: "الكنيسة هي السَّماءُ على الأرض، والذين يدخلونها ينبغي أن يقفوا حسناً كسُكَّان السَّماء وبوقار الملائكة؛ عيونهم شاخصة دائماً نحو المذبح، وأرجلهم واقفة باستقامة بغير ملل، أيديهم ممتدة إلى جانبهم بغير حركة، أفواههم لا تُفتح إلاَّ لتسبيح".

ويقول أيضاً: "داخل الكنيسة، حافظ على النِّظام بكلِّ احترام وهدوء، معطياً الكرامة لربِّ البيت، ولا تحاول أن تَلتفت إلى أحد، ولا تُلفت نظر الآخرين إليك، وذلك احتراماً لله ومنفعة لنفسك، ولعدم الشَّوشرة على الصَّلاة والمصلِّين. لا تخرج وتدخل أثناء الصَّلاة، بل اضبط نفسك حتى نهاية الصَّلاة، ولا تخرج قبل إعطاء التَّسريح بأيِّ حال، لأنَّ في ذلك امتهانٌ لكرامة ربِّ البيت، وتشبُّهاً بيهوذا الذي خرج دون إذن، فدخله الشيطان. فلا يوجد سبب من الأسباب مهما كان مُهماً في نظرك، يستدعي خروجك وتركك الصَّلاة. لا تعوِّد نفسك الاستهتار بالأمور الصَّغيرة، لأنها هي التي تجعلك تستهتر بأمور الكنيسة والله، فتصير مستبيحاً مثل عيسو".

والقدِّيس أفرآم السِّرياني (٣٠٦- ٣٧٣م) يؤكِّد هذا الأمر، من قبل ذلك بزمان طويل ويقول:

١- الأب ألكسندر شميمان، الإفخارستيَّا سرُّ الملكوت، ترجمة سامر عبُّود، منشورات النُّور، ١٩٩٣م، ص ٣٤

٢- العظة الثَّانية له على الصَّليب واللِّص (*PG* 49, 409).

٣- انظر أيضاً: قوانين الرُّسُل القبطيَّة ٥٢:١

٤- أي غضباً.

٥- أي عيباً، أو غشاً.

[إني مندهش، كيف أنَّ البعض قد بلغ بهم قلَّة الحياء، حتى أنهم بلا سبب معقول، يتركون الخدمة الإلهيَّة في الكنيسة، ويخرجون قبل إعطاء الحل بالخروج].

وتقول قوانين الرُّسُل: ''كلُّ المؤمنين الذين يدخلون الكنيسة ويسمعون الكُتُب، ثمَّ لا يقيمون في الصَّلاة حتى إتمام القُربان المقدَّس، ينبغي أن يُفرزوا، بما أنهم مسبِّبون التَّشويش في الكنيسة''.

ويقول الأُسقُف بوتين: ''لا تنشغل عن متابعة الصَّلاة داخل الهيكل وخارجه، ولا تشغل نفسك بشيء خاص، حتى ولو كان مقدَّساً ونافعاً، كقراءة أو تلاوة أو خلافه، ممَّا يحرمك من بركة الخدمة والاشتراك في التَّسبيح ... لا تعمل حركات خاصة، كسجود أو ركوع أو خلافه في وسط الكنيسة، بل اشترك فقط في حركات الشَّعب في أوقاتها''.

وتقول قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م):

[الذي يخدم المذبح باستحقاق، يُنعم الله على وجهه بجمال أكثر من الكُل مثل موسى، ويجعله الله مثالاً للذين يخدمون المذبح بطهارة. فإذا لم تكن لكم قُدرة أن تكونوا وديعين، فابتعدوا لئلاَّ تحترقوا، لأنَّ الذي على المذبح نارٌ لا تُطفأ، كما قال الله إنَّ نار المذبح لا تطفأ[٦]].

ويصف كاسيان في الفصل العاشر من كتابه الثَّاني من كُتُب المبادئ، نظام الصَّلاة بالمزامير عند الأقباط، فيقول:

[وحينما يجتمعون معاً لإقامة خدمة الصَّلوات، فإنهم يراعون الصَّمت بدقَّة، حتى أنه بالرَّغم من عددهم الكبير، فإنه لا يتبيَّن لك أنَّ أحداً موجودٌ قط، إلاَّ الواقف في الوسط ليسبِّح].

ويقول فيلارت أُسقُف موسكو: ''قد رُتِّبت الكنيسة، لكي تكون مشابهة في كلِّ شيء لما هو في السَّماء. فجمالُ الكنيسة من داخل، يُشبه عظمة عرش الله والقائمين حوله. والأنوار الكثيرة، تُشبه ضياء مجد الله وقدِّيسيه. وعطر البُخور، يُشبه جمال رائحة الحياة الأبديَّة، والبُخور الصَّاعد من مجامر الأربعة والعشرين قسيساً. والألحان والتَّسابيح، تُشبه تهليل الملائكة، وترنُّم المائة والأربعة والأربعين ألفاً لترنيمة الخروف''.

يقول الأنبا ساويرس ابن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م):

[النَّهار والليل أربعة وعشرون ساعة، جُعل للإنسان منها ثلاث دفوع يحضر فيها الكنيسة باكراً وعشيَّة ووقت القُدَّاس. وجملة هذه الدُّفوع ما تبلغ ساعتَين، ويبقى له اثنان وعشرون ساعة يعمل فيها معيشة الجسد الفانية ... هذه الثَّلاثة يا حبيب التي ذكرتها لك، بها يثبُت الرُّوح القُدُس في المؤمنين، وبه يغلبون الشياطين، أعني المضي إلى الكنيسة بُكرة وعشيَّة كلِّ يوم، وملازمة كلِّ قُدَّاس من أوَّله إلى آخره، وسماع كُتُب الله يوم الأحد جميعه. هذه الثَّلاثة إذا لازمها الإنسان، يثبُت فيه الرُّوح القُدُس، فيكون أبداً مولوداً من الله ... وقتُ القُدَّاس لازمٌ كلَّ يوم مقدار ساعة واحدة في كلِّ أربعة وعشرين ساعة، فليس في ذلك خسارة أيضاً][٧].

وهكذا يتَّضح لنا ممَّا سبق ذكره، أنَّ كلَّ الكنائس القبطيَّة والسِّريانيَّة والبيزنطية تهتم غاية الاهتمام بوقار العبادة في بيت الرَّب، ومراعاة منتهى الهدوء والنِّظام، إكراماً لربِّ البيت، السَّاكن في بيته.

صلاة الإفخارستيَّا هي سرّ وحدة الإيمان والمحبَّة

يقول العالم اللِّيتورجي الأب جريجوري دكس G. Dix : كلُّ الصَّلوات الإفخارستيَّة بدون استثناء، تُعبِّر من

٦- للمؤلِّف، قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة، القاهرة، يناير ٢٠٠٣م، ص ٦١

٧- الأنبا ساويرس ابن المقفَّع، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣

حيث تركيبتها الحواريَّة، عن المشاركة في إتمام الخدمة بين رئيس الخدمة والشَّعب. فالجماعة تختم كلَّ صلاة من الصَّلوات الإفخارستيَّة بعبارة ''آمين''، إحدى أهم الكلمات في اللِّيتورجيَّا المسيحيَّة، التي تُصهر شعب الله ومن يرأسه، في بوتقة واحدة[٨].

ونحن نصير مستحقِّين أن نتناول جسد المسيح ودمه الأقدسين، لأننا نُعلنه باجتماعنا معاً، لأنَّ جسد المسيح على المذبح، هو هبة معطاة للكنيسة كلها، أي للجماعة كلِّها، في سرِّ وحدة الإيمان ووحدة الحُب.

كلُّ من يحضر الكنيسة بفرديَّة وانعزال عن الجماعة، بدعوى تقوى شخصيِّة، لم يُدرك بعد معنى سرّ الكنيسة. فليست الإفخارستيَّا هي للتَّقديس الشَّخصي فحسب بمعزل عن باقي الجماعة، فيلجأ إليها أو يمتنع عنها كلٌّ منَّا، تبعاً لحاجته الرُّوحيَّة التي يقرِّرها هو بحسب معاييره ومزاجه الخاص، ودرجة استعداده أو عدم استعداده، واضعاً جسد الرَّب ودمه في خانة الأمور التي يمكن الاستغناء عنها ولو إلى حين! لأنَّ الإفخارستيَّا هي سرُّ الوحدة، وحدة المؤمنين معاً في النَّفس والجسد والرُّوح. لأنَّ الكنيسة هي التَّجسيد المستمر لهذه الوحدة كما في قول قُدَّاس القدِّيس باسيليوس: ''اجعلنا كلّنا يا سيِّدنا مستحقِّين أن نتناول من قُدْساتك طهارة (أي تقديساً) لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا، لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ...''. هذه هي غاية الاجتماع الإفخارستي. وهنا القداسة الشَّخصيَّة ليست هي الغاية في ذاتها، بل وسيلة كمال الوحدة بين أعضاء الكنيسة الواحدة، فهبات الله للأشخاص، هي من أجل تكميل عمل الكنيسة، وليس من أجل ذواتهم وحدهم، بمعزل عن الجماعة.

ممَّا لا شك فيه، أنَّ نقطة انطلاق الخدمة اللِّيتورجيَّة، كانت مشاركة كلِّ المسيحيِّين فيها. فالذَّبيحة المقدَّسة لم تكن تُقدَّم باسم الجميع وعن الجميع فحسب، بل وبواسطة الجميع أيضاً. وكان مبدأ تقديم القرابين وشرطه، هما في أن يُحضِر كلُّ شخص قربانه. فكان كلُّ مسيحي يأتي إلى الاجتماع الإفخارستي في الكنيسة، حاملاً معه ما يسمح له قلبه وحاله، بتقديمه لسد حاجات الكنيسة[٩]. أي حاجات رجال الإكليروس والأرامل واليتامى والفقراء، الذين كانت الجماعة مسئولة عن تدبير شؤونهم. لأنه بأعمال المحبَّة، تصير الكنيسة تجسيداً لمحبَّة المسيح. فيهتم الجميع بالجميع، ويخدم الجميع الجميع. وكانت هذه الحقيقة هي من الوضوح والبداهة في الكنيسة الأولى، ما كان يحمل الأطفال اليتامى والمُعدَمين على المشاركة في هذه التَّقدمة، بإحضارهم ولو ماء الذَّبيحة، مساهمة منهم في تقدمة المحبَّة هذه.

ونقرأ في القانون رقم (٨٤) من قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م): '' ليس الذي يعطي الذَّهب للهيكل، هو الذي يُذكر فقط، بل والذي يعطي كوز فخَّار، أو خُبزاً، أو قليل خمر، أو وعاء للماء، أو حتى الذي يملأ حوض الماء للتَّغطية[١٠]، فإنَّ الله يذكره مثل الذي يعطي مالاً كثيراً كقدرته''.

وهو نفس المفهوم الذي ظل سارياً في الكنيسة على مدى قرونها، فعن تقديم القرابين في القُدَّاس الإلهي وأهميَّتها، تقول قوانين البابا غُبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١- ١١٤٥م)[١١]: ''يا أحبائي، أنتم عارفون بما أُمرنا به من حمل القرابين والعشور لبيت الله. ويحذِّروننا أن نقف قُدَّام الله وأيدينا فارغة[١٢]. ويؤثر ضعفي من صلاحكم، أن يضع كلُّ واحد منكم في نفسه، ألاَّ يحضر إلى البيعة وهو صفر اليدين، **ليتقرَّب من صدقة غيره**، بل يُقدِّم ما تيسَّر له، تبعاً لظروفه الحاضرة، سواء كثير أو قليل. فإنَّ الله يقبل الكثير والقليل إذا كان بنيَّة خالصة. ومن شهادة الرَّب لصاحبة

٨- الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٥

٩- ٢كورنثوس ٩:٧

١٠- انظر: متى ١٠:٤٢

١١- القانون رقم ١٦ من مجموعة قوانين الـ ٣٢ قانوناً للبابا غبريال الثَّاني.

١٢- انظر: تثنية ١٦:١٦

الفلسَين، ما يُقنع بذلك[١٣]. من له أذنان سامعتان فليسمع''[١٤].

وتعبير ''**ليتقرَّب من صدقة غيره**''، يشرح لنا أنَّ الكنيسة لا تطلب تقديم العطايا والنُّذور من أجل التَّقدمات في حدِّ ذاتها، بل لأنها تعبير عملي عن رغبتنا الحقيقيَّة في شركة الجماعة، وهي الشَّركة التي تسوِّغ لنا الاشتراك في جسد الرَّب ودمه الأقدسَين.

أمَّا انعزل العلمانيِّين عن المشاركة الفعليَّة في الخدمة اللِّيتورجيَّة، فقد أثر تأثيراً سلبياً على مفهوم سرّ وحدة الكنيسة. وكان انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة بحجاب، ظهر في المعمار الكنسي مؤخَّراً، يخفي من ورائه كلَّ شيء، كأننا نعود إلى الحجاب الذي هدمه المسيح بصليبه وموته، والذي كان يفصل قديماً بين القُدس وقُدس الأقداس.

لم يُعرف الحجاب الذي يحجب الهيكل من ورائه، وكأنه حائط مسدود، إلاَّ بعد زمن البابا غُبريال بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) بوقت كبير، حيث أخذ حامل الأيقونات طريقه إلى الكنيسة القبطيَّة نقلاً عن الكنيسة البيزنطيَّة، في غضون القرن الرَّابع عشر أو الخامس عشر للميلاد.

فالهيكل مفتوح على صحن الكنيسة، وليس محجوباً عنه، كما حدث في القرون المتأخِّرة، بإيقونستاس، يحجب ما وراءه. لأنَّ انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة، واعتبار الهيكل هو المكان الذي لا يحق للعلمانيِّين دخوله، قد أنشأ شعوراً بالانعزاليَّة عند العلمانيِّين، كونهم مجرَّد مشاهدين لطقوس يجريها العارفون، وهم طغمة الإكليروس. فالإيقونستاس لم يوجد لكي يفصل بين العلمانيِّين والإكليروس، أي كحائط يفصل العلمانيِّين عن المكان المقدَّس، ومن ثمَّ لا يجوز عبوره، إنما الإيقونستاس قد شُيِّد ليحمل أيقونات المسيح والقدِّيسين، لتتأكَّد الشَّركة بين السَّمائيِّين والأرضيِّين، ولكي يتَّضح للنَّاظرين، أنَّ الكنيسة بيت الصَّلاة هي السَّماء على الأرض، ومكان التقاء العالم غير المنظور بالعالم المنظور[١٥].

فالإيقونستاس الذي كان في أصوله الأولى صفاً من الأيقونات تستند على دعائم، قد تحوَّل إلى فاصل مُزدان بالأيقونات التي تحجب الهيكل من ورائها عن عيون الشَّعب. وعلى رأي الأب ألكسندر شيمان: ''كانت الأيقونات في حاجة إلى فتحات تظهر منها، فصارت اليَوم الفتحات في حاجة إلى أيقونات تسدّها، سالخة بذلك العلَّة الأساسيَّة لوجودها، لتُصبح لوحات تزيينيَّة قائمة بذاتها''[١٦]. نحتاج أن نتطلَّع إلى المذبح والهيكل عبر أيقونات القدِّيسين، لا أن يُحجب الهيكل عن عيوننا بأيقوناتهم.

إنَّ مشاركة العلمانيِّين في الإفخارستيَّا، تحوَّلت إلى حضور سلبي. فغيرهم يحتفل عنهم بالقُدَّاس الإلهي. وفي حين كانت الحدود التي تفصل هذا العالم عن الكنيسة تضم العلمانيِّين فيما مضى، فهي اليَوم تقصيهم عنها خارجاً ... إنَّ التَّسمية السَّابقة (للعلمانيِّين هي) Laikos وتعني أفراد شعب الله أي ''الشَّعب الذي اقتناه الله'' (١بطرس ٢:٩)[١٧].

١٣- انظر: مرقس ١٢:٤٢
١٤- انظر: متى ١١:١٥
١٥- نفس المرجع، ص ٣١
١٦- نفس المرجع، ص ٣٢
١٧- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٣٤٠